الطيران الصناعي

لم يكفِ الانسان انهُ مالك الارض برّها وبحرها متسلّطٌ على الخلائق صامتها وناطقها وانهُ بسط يدهُ على الضعيف من الحيوان فاعتقلهُ لخدمتهِ وطعامهِ وسلّط بأسهُ على القويّ فشرّدهُ في مفاوز القفر وآجامهِ وسطا على حيوان البحر فأُوصدت في وجههِ مذاهب الفرار وجاورهُ بسفُنهِ فلم يجد على ذلك الجوار من قرار حتى طمح بطرفهِ الى مسارح الطير في الهوآء فودّ لو يزاحمها بجثمانهِ وينتقل اليها بكيانهِ بعد ان اخذ عليها شعاب الجوّ فلم يُنجها منهُ جناحٌ سبّاق ولم يحمِها منهُ تحليقها على اعالي الطباق

ولقد كان امر الطيران مما تمثل لنفس الانسان قديماً بما تشبّح لهُ المخيّلة من غرائب التماثيل الاّ انهُ كان في اول امرهِ صورةً لا تتجاوز حدّ الخيال ثم اكتسى ذلك الخيال ثوباً من الوهم فصار امنيةً تُشتهَى تارةً ويُحلَم بها اخرى ثم تجسمت تلك الأُمنيّة فصارت خُرافةً تُروَى وحديثاً يتناقلهُ الآخرون عن الاولين.

واول ما رُوي من ذلك ما جآء في اساطير اليونان من حديث ديدال حين هرب بابنهِ ايكار من الحصن الذي حُبسا فيهِ في جزيرة كريت بأن اتخذ كلٌّ منهما لنفسهِ جناحين من ريش الطير الصقاهما بالشمع وطارا من اعلى الحصن فنجا ديدال وحلّق ابنهُ ايكار في الجوّ حتى دنا من الشمس فذاب الشمع وانحلّ الجناحان فسقط في البحر وهلك . ويقرب من هذه الحكاية ما رواهُ المقّري في كتاب نفح الطيب من ان عباس بن

فرناس حكيم الاندلس احتـال في تطيير جثمان نفسهِ وكسـا نفسهُ الريش ومدَّ لهُ جناحين وطار في الجوّ مسافةً بعيدة قال ولكنهُ لم يحسن الاحتيال في وقوعهِ فتأذى في مؤخرهِ ولم يدرِ ان الطائر يقع على زِمِكّاهُ ولم يصنع لهُ ذنباً . اه

وقد ورد في التاريخ ذكر عدة أُناسٍ ممن زاولوا ذلك منهم راهبٌ انكليزي من ملمسبري يقال لهُ اوليفياي من اهل القرن الحادي عشر للميلاد وهو اقدمهم عهداً ولعلهُ قريب من عصر عباس بن فرناس ومنهم الرياضي الطلياني جان باتست دانتي من اهل القرن الخامس عشر وألآرّ الفرنسوي وكوك الالماني من اهل القرن السابع عشر ومنهم غير من ذكر الاّ انهُ لم يثبت عن احدٍ من اولئك انهُ طار فعلا

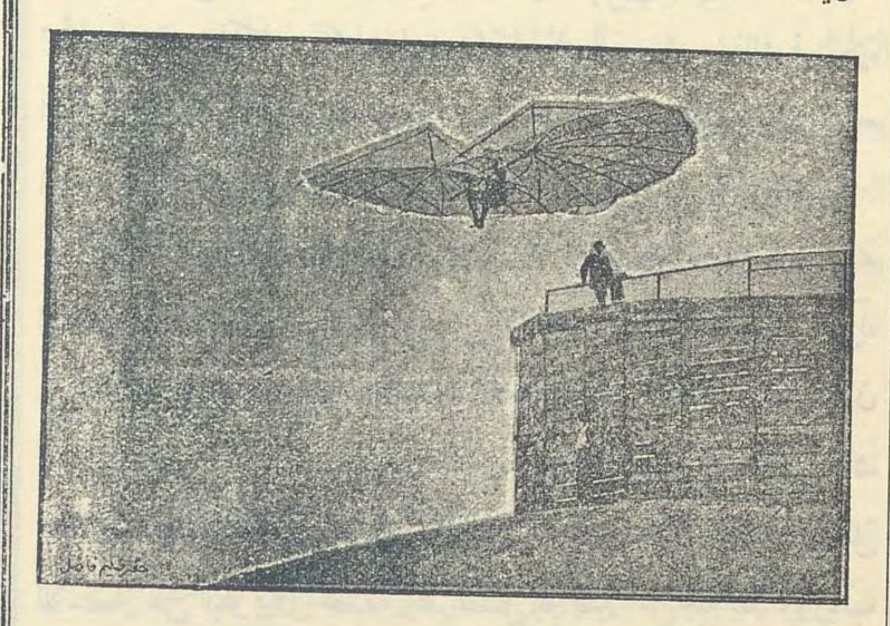
على ان محاولة الانسان الوصول الى ذريعةٍ يتمكن بها من الطيران لا تُعدّ من طلب المستحيل لوجود ذلك متحققاً في الطائر فلا يمتنع على الصناعة البشرية ان تتوصل الى بلوغ مثلهِ في الانسان . غير انهُ لا بدّ قبل إعمال الفكر في اخراج هذا التصوّر الى الفعل من الوقوف على سرّ الطيران في الطائر نفسهِ وتمثيل حركة جناحهِ بكل اطوارها وهيآتها من طريق المراقبة الحسية ثم الدخول على المسئلة من الوجه العلمي والتثبّت من قوانين الحركة ومراتب ضغط الهواء على السطوح المتحركة فيهِ باعتبـار شكلها واتجاه كلٍّ من امتداد السطح والحركة التي يتحركهـا حتى يكون البنـآء في هذه المسئلة الدقيقة على مشاهدةٍ صادقة وقواعد راهنة

وقد تنبه العلمآء لهذا البحث من عهدٍ غير بعيد فا كثروا من المراقبـة

والتنقيب في تمثيل حركة الطائر الاّ انهم لم يصلوا الى كمال تحقيقها على وجهٍ يؤيدهُ الحسّ الجليّ حتى اجرى الدكتور ماراي امتحانهُ المشهور فاماط الحجاب عن هذه المسئلة بما وضعها بكل اجزآئها موضع العيان . وذلك انهُ اخذ صورة حمامةٍ في حال الطيران بآلةٍ اخترعها لذلك سماها بالمكحلة الفوتغرافية فمثّل حركة جناحيها وسائر اعضآئها في اثني عشر رسماً متتابعة تتألف صورة الحركة من مجموعها على ما تقدم لنا من شرح ذلك في الجزء الرابع من البيان (صفحة ١٧٥ وما يليها) ثم عمل لكل واحدٍ من هذه الرسوم تمثالاً من الشَبَه وعرض تماثيلهُ هذه في معرض باريز سنة ١٨٨٩

الا ان هذا الاكتشاف مع كبر فائدته لم يكن كافياً للبلوغ بهذه الامنية الى الطور الصناعيّ لما بقي ورآء ذلك من تحقيق قوة ضغط الهوآء على الجناح في كل طورٍ من اطوار حركتهِ اذ لا يخفى ان الطائر انما يتزن في طيرانهِ بضغط الهوآء على جناحيهِ وتعديلهِ حركتهما على مقتضى ذلك الضغط . وهذا ايضاً من المسائل الخفية لدقة ما يجري هناك وقصور وسائل الامتحان عن البلوغ الى تحقيقهِ وقد اشتغل بهِ كثيرٌ من جلّة العلمآء وارباب النظر فلم يظفروا منهُ بحقيقةٍ راهنة . واول من تكلم عليهِ الفيلسوف نيوتن المشهور فكان مما قرّرهُ ان قوة ضغط الهوآء على السطح المستوي ان كانت حركة ذلك السطح عموديةً على سطح امتدادهِ فهي على نسبة مربع سرعتهِ وان كانت مائلةً فعلى نسبة مربع جيب الزاوية الناشئة بين سطح امتدادهِ وجهة حركتهِ . وبحث بعدهُ العلاّمة بوردا فصحح الشطر الثاني من هذه القاعدة بأن جعل الضغط فيهِ على نسبة الجيب نفسهِ لا على نسبة

مربع الجيب وصوّبهُ بعض المحققين . لكن بقي ان كلاً من القاعدتين مبنية على اعتبار مجرّد الضغط من غير التفاتٍ الى ما يحدث هناك من الاحتكاك بجرم الهوآء وهو كما لا يخفى يتفاوت بتفاوت الزوايا وحينئذٍ فالمسئلة في غاية الالتباس ولا يمكن الحكم فيها بوجهٍ مطرد ولهم في ذلك مباحث وتفاصيل طويلة لا فائدة من استقصآئها ولا يُتوصل منها الى قولٍ فاصل فاجتزأنا



منها بما ذكر حب الاختصار

الاّ انهُ على كل حال يستفاد مما مرّ ان شكل الجناح اذا كان محدباً كانت قوة الضغط عليهِ اخفّ لانهُ إلى اي جهةٍ تحرك كان قسمٌ من سطحهِ عمودياً على تلك الجهة والباقي مائلاً عن العمودية كما لا يخفى وهو الشكل الذي اعتمدهُ المجربون من اصحاب هذا الشان وقد تتابعت امتحاناتهم في ذلك فصنعوا اجهزةً صغيرةً مثلوا فيها جناحي الطائر وجعلوا المحرّك فيها

سلكاً من المطّاط (الكاوتشوك) يُشدّ احد طرفيهِ في طرف اسطوانةٍ والطرف الآخر في الجهاز ثم تدار الاسطوانة فيلتفّ السلك حولها على شكل لولب فاذا اخذ السلك ينحلّ دارت الاسطوانة فسار الجهاز في الهوآء مدةً تختلف باختلاف تركيبهِ . وقد تفننوا في هذه الاجهزة على هيئاتٍ واشكالٍ شتى لا محل لوصفها هنا وكلها كان المقصود منها الوصول الى إحكام الحركة الصناعية دون الاستعمال المقصود بالذات . واول جهازٍ من هذا الضرب صُنع بقصد الاستعمال هو الذي تراهُ في الرسم صنعهُ المسيو ليليانتال وطار بهِ في موضع يقال لهُ ستغلتز بجوار برلين ومسطَّح جناحيهِ يبلغ خمسة عشر متراً مربعاً . وكان اول نهوضهِ عن منهبَط تبلغ زاوية انحدارهِ بين ١٠° و ١٥° فاندفع اولاً اندفاعاً سريعاً مسافة خمس او ست اقدام ثم اخذ في تحريك جناحيهِ فارتفع في الجوّ وقطع مسافة ٢٥٠ متراً . ولما اراد النزول حوّل مركز ثقل الجهاز فأمال سطحي جناحيهِ ميلاً يسيراً وبذلك تمكن من ضبط سرعة نزولهِ وجهة حركتهِ

على انهُ مهما يكن من نجاح هذا الامتحان فانهُ لا يُرجى منهُ ان يقوم بكل الحاجة التي تُنتظر من هذا الاختراع بحيث يقوم مقام المنطاد اذ ليس في قوة عضل الانسان ما يبلغ ان يقاوم جذب الارض ولذلك كان اتخاذ الاجنحة لرفع الانسان مسافة عالية عن الارض وتحليقهِ في الهوآء مما لا تضطلع بهِ المقدرة العضلية بالقياس الى ثقل بنيتهِ على خلاف ما هو في بنية الطائر فلم يكن لهُ بدٌّ والحالة هذه من اختراع آلةٍ للطيران يكون فيها من القوة ما هو اعظم من قوّتهِ يستعين بها في رفع ثقلهِ واثقالٍ أُخر معهُ

اذا استتبّ لهُ هذا الاختراع . وهذا الاخير هو ما عُني بهِ المسيو ادير الفرنسوي منذ سنة ١٨٩٣ بامر وزارة الحربية الفرنسوية وقد خلا لذلك في معملٍ اعدتهُ لهُ بعيدٍ عن حركة الناس في موضعٍ قد استتر بالاشجار والادغال بحيث لا يهتدي اليهِ طارق ولا يمرّ بهِ ابن سبيل . وقد امتحن آخر جهاز صنعهُ في شهر اكتوبر من السنة الماضية فحملهُ الى ساحة مستديرة قد سُوّيت ارضها وسُلِفت ثم اعمل آلات الجهاز فارتفع عن الارض الاّ انهُ ما كاد يستقلّ حتى انفصمت لوالبهُ الدافعة واتفق في تلك الساعة سقوط مطرٍ غزير فاضطرّ الى ترك الامتحان وارجائهِ الى موعد آخر لكن ظهر مع ذلك ان قوّة الدافع كانت وافية والاجنحة قادرة ان تحمل الجهاز مع ملحقاتهِ وقائدهِ . ويقال انهُ اصلح الجهاز بعد ذلك واتمّهُ لكن عرض من قِبَل وزارة الحربية ما عاق استئناف امتحانهِ والله اعلم

اما شكلهُ فهو اشبه بخلقة خفّاش هائل بجناحين عظيمين ممتدّين يبلغ طولهما ثمانية امتار مصنوعين من القصب الهندي والحرير المدهون ولهُ عجلات مختلفة الاوضاع قد نُصِب عليها بناءٌ قائم الزوايا يبلغ ارتفاعهُ عدة امتار والآلات في داخلهِ وهو يتحرك بالبخار وفيهِ مكثّفٌ يردّ البخار ماءً بحيث ان المقدار الذي يوضع فيهِ من الماء لا يُحتاج الى تجديدهِ ولا زيادتهِ وجميع اجزائهِ مصنوعةٌ من الفولاذ الاجوف وكلهُ لا يكاد يبلغ ٥٠٠ كيلغرام من الوزن

وهذا الاختراع اذا تمّ فهو ولا شك خيرٌ من المنطاد لقلّة مقاومة الهواء لهُ بالقياس الى ما بين الجرمين من التفاوت في مساحة الظاهر الا انهُ

ادنى الى الخطر لانهُ اذا تعطل شيءٌ من آلاتهِ او مال عن اتجاه حركتهِ سقط للحال فهلك كل ما فيهِ

كلُنديك

او ارض الذهب

قد افترق الناس في طلب الدنيا على مذاهب متباينة واطوار متفاوتة فنهم من رضي منها بالكفاف علماً بانها دار قُلعة وأن كل ما فيها متاعٌ الى حين · ومنهم من جدّ بهِ الحرص على جمع حطامها وجعل ايامهُ وقفاً على الاستكثار من موجودها فحرم نفسهُ طيبات الحياة والتمتع بلُبانات العيش حرصاً على توفير الدينار يجمعهُ الى الدينار والدرهم يقرنهُ بالدرهم لا يرى اللذة الا في النظر الى تلك الجمادات · ومنهم من يرى جُلّ ما ينالهُ من الحياة ان يسعى في ابتناء المجد وتخليد الذكر وان يترك في الارض آثاراً ناطقةً من بعدهِ بما كان لهُ من مزيّة وما أُوتي من موهبة · الا ان كل واحد من هؤلاء ربما افرط في الطلب وبالغ في الحرص على دنياهُ حتى انهُ كثيراً ما يعرّضها للضياع بتةً وانظر الى الجنديّ الذي يقتحم ساحات الحروب ويقذف بنفسهِ في اعظم المواقع خطراً وابعدها بالسلامة ظنّاً طمعاً في مأثرة تُذكَر عنهُ او سؤددٍ يسمو اليهِ وكثيراً ما يكون في ذلك هلكتهُ وكذلك حال المقامر الذي يخاطر بحظهِ من الدنيا ويضع اموالهُ في كِفه القدر آملاً ان تعود عليهِ بالمزيد وقلما عاد الا بخسرانها جملةً

على انهُ شتّان بين مخاطرة الجندي بنفسهِ ومخاطرة المقامر بمالهِ فانهُ

مع كون مخاطرة الجنديّ اعظم تطوّحاً وافدح خسراناً لانهُ انما يخاطر بالنفس التي لاعوض لهُ منها ولا ينتفع بشيء بعدها فانهُ انما يقدم على ذلك بما يدفعهُ اليهِ من كبر نفسهِ وعلوّ همتهِ وما تحدّثهُ بهِ خواطرهُ من المنازل الرفيعة والمراتب الشريفة مما لا يُدرَك الاّ بالاقدام على الاهوال والصبر في مواقع الجلاد وبذل اعزّ ما لديهِ في سبيل الفخر والذكر الباقي . واين هذا من مطامع المقامر الذي انما يقدم على المخاطرة بمالهِ بما يحملهُ عليها من الجشع الذميم والخسة الممقوتة وما يبعثهُ عليها من دناءة همتهِ وصغر نفسهِ وشرههِ الى ما في ايدي الناس وطلب الاستيلآء عليه بغير حقّ وانما يتذرع الى بغيتهِ بطرُق الاحتيال وضروب الاختلاس

وبين حال هذين حال اقوام يرحلون في هذه الايام من جميع اطراف البلاد فيغادر أحدهم منزلهُ واهلهُ وصحبهُ ويسافر على ظهور الاهوال والاخطار متخطياً اسباب الهلكة وحبائل الحمام مكافحاً عوادي الطبيعة متعرضاً لانياب الجوع وسموم الامراض سالكاً بين مسارح الضواري ومكامن اللصوص والقطّاع الى ارضٍ لا انيس بها هي في اقصى المعمور بل وراء المعمور في بلاد الزمهرير والجمود والموت السائد على الطبيعة باسرها لا ليعمر تلك الارض او ليكتشف فيها فائدة مجهولة او يبحث عن شيء من تاريخ الانسان او الحيوان ولكن جلّ غرضهِ ان يحتفر بين صخورها ويحتمل ما امكنهُ احتمالهُ من التراب المسمى بالذهب يرجع به الى ارضه غنيمةً باردة . وما ننكر على طالب الذهب ان يسعى اليهِ ويسافر في تحصيلهِ ولكن وسائل الطلب انما تكون على قدر المطلوب ومهما كان القدر

الذي يحلم احد اولئك بالحصول عليهِ والغنى الذي سيحوزهُ فانهُ لا يستحقّ ان يخاطر في طلبهِ بالنفس التي لاجلها يسعى في ذلك الطلب . على ان امثال اولئك لو كانوا من ذوي الفقر والحاجة والذين انما يرحلون هرباً من الذلّ والمسكنة كسائر المهاجرين لعهدنا هذا طلباً للارتزاق من صنائعهم وتجاراتهم لكانوا معذورين فيما يأتون من ذلك ويقتحمون من الشدائد في سبيلهِ ولكنهم اقوامٌ من طلبة الغنى والتوسع في الدنيا وممن يبتغون الحصول على الثروة العاجلة من غير ان يقرعوا ابوابها ولا يأخذوا باسبابها والاّ فان طالب الكفاف يجدهُ فيما هو دون هذا العناء فضلاً عن انهُ ينال رزقهُ من الوجوه التي ينتفع بها وينفع ويكون عضواً عاملاً في المجتمع

ولقد سرى هذا الداء في هذه الايام بين كثيرٍ من الناس وانتشرت عدواهُ في كل ارضٍ الى ابعد اطراف المعمور ولا سيما فيما يجاور ذلك الموضع من الارض الاميركية فنسل ارباب المطامع اليهِ من كل حَدَب يطأون اثر الرحّالة هري دي وندت مكتشف كلُنديك ارض السعادة والغنى بل قرارة الشقاء والفقر المدقع والموت . وهذا ما كتبهُ الرحالة المذكور عن نفسهِ في تلك الرحلة قال

لقد جلت في صحاري افريقيا ومجاهلها وسافرت في بلاد الترك والفرس وبلوخستان والهند والصين وجزائر المحيط فاكتشفت واختبرت وعانيت كثيراً من المشاق والاهوال ولكن لم اصادف ما يستحقّ ان يدعى خطراً الا في سفري الاخير الى كلنديك او ارض الذهب وهي بقعةٌ من ارض كندا من املاك الدولة البريطانية بشمال اميركا الشمالية وكان خروجي من

نيويرك منذ سنة مع ستين رجلاً من الاصدقاء والاتباع فسرنا قاصدين مُنتريال ثم انتقلنا منها الى فنكوفو فڤكتوريا فجونو وهي مفتاح الارض الذهبية وباب الاخطار والمخاوف فلبثنا هنالك اياماً نتأهب لاستتمام رحلتنا وكان طريقنا فوق اكمةٍ يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ او ٤٠٠ قدم مكسوّةٍ بالثلج ليس فيها طريقٌ معروف ولكن يُهتدَى فيها باعمدةٍ مركوزة في الجمد على مسافاتٍ بين الواحد منها وما يليهِ . فبينا نحن في صبيحة يومٍ نقطع ركام الثلج في احد المنحدَرات اذ سمعنا اصواتاً هائلة اشبه بقصيف الرعد ثم ظهرت فِدَرٌ عظيمة من الثلج تتحدّر كالأُكر من اعلى الاكمة وكانت كلما قربت منا يتعاظم حجمها فهرولنا مسرعين من طريقها الا ان واحداً من رفاقنا لم يتمكن من الاسراع في الهرب فادركتهُ احدى تلك الفِدَر فكان آخر العهد بهِ . فقطعنا على ذلك مسافاتٍ طويلة ونحن كلما قربنا من رأس الاكمة نستبشر بقرب النجاة من تلك الطريق المهلكة حتى بلغناهُ وما كادت تطأهُ اقدامنا حتى انتصب امامنا جبلٌ شامخٌ في عنان السماء لا يقلّ علوّهُ عن ثلاثة آلاف قدم شديد الوعورة كثير الرعان والاخاديد والارض هناك مكسوّةٌ كلها بالجمد لا يسكنها من مخلوقات الله سوى الذئاب والدِبَبة وانواع اخرى من الوحش لا توجد الا في الاقاليم الباردة . اما الزاد فلا امل في الحصول عليهِ هناك ولو بذل الانسان الوفاً من المال وقد عاينّا جثث كثير من الناس ممن هلكوا بالجوع والبرد واكثرهم متوسدون الاكياس الملأى بالذهب الذي عادوا بهِ من تلك الارض

وكانت المسافة التي قطعناها بين الاكمة الاولى وقمة الجبل الذي يليها

لا تقلّ عن ٨٠٠ ميل ولم يكن لنا من نستعين بهِ على نقل امتعتنا وازوادنا الا قومٌ من سكان تلك الناحية يُعرَفون بالهنود شرسو الاخلاق في الغاية لا يحمل احدهم اكثر من مئة ليبرة بأجرة فاحشة وقد وجدنا ذلك سهلاً بالقياس الى ما عرفناهُ بعدُ من انهم كثيراً ما يقتلون المسافرين ويستولون على امتعتهم

وبعد ان فرغنا من اجتياز هذا الجبل الشاقّ افضينا الى مكان يقال لهُ دايا وهو المحطة الثانية من تلك الطريق فلبثنا هناك حيناً للراحة واخلفنا ما نفذ من مؤونتنا وابتعنا عرباتٍ تجرّها الكلاب وهي مما لا يُستغنى عنهُ في تلك السهول الجمدية لقطع المسافات والتخلص من شرّ الوحوش . ثم نهضنا لاستئناف المسير وكان بين ايدينا سهلٌ متسعٌ فقطعناهُ حتى انتهينا الى مضيق يقال لهُ مضيق شِكلوت وهو اشدّ الطريق خطراً يذهب صُعُدًا في جبلٍ قائم يبلغ ارتفاعهُ ٤٠٠٠ قدم وكأنهُ صخرٌ واحد يربط الارض بالسمآء . ولما لم يكن لنا طريقٌ سواهُ جمعنا ما بقي لنا من القوّة واخذنا في تسلق ذلك المرتقى المخيف حتى بلغنا الى اواسطهِ وكان الجمد الذي ندوس عليهِ في ذلك الموضع رقيقاً جدًّا فبينا كان اثنان من الرفقة يسيران عليهِ هبط تحت اقدامهما فسقطا الى قبرهما المآئي في سفح ذلك المنحدَر فكان ذلك مدعاةً لسائرنا الى التيقظ والانتباه الاّ ان ذلك لم يكن هو الخطر الوحيد الذي اعترضنا في تلك الناحية فانهُ في اليوم التالي تكاثف علينا الضباب حتى حاكى ظلام الليل وسدّ علينا وجوه الهداية فبقينا مدة ست وثلاثين ساعة في اماكننا نقاسي آلام البرد والجوع والخوف وكانت الذئاب

تعوي في اسفل الوادي كانها تنذرنا انها لنا بالمرصاد . ولما كان اليوم السادس عشر من نهوضنا من دايا بلغت قمة الجبل وجلست اراقب وصول رفاقي وكانوا قد اصبحوا عدداً قليلاً وكان لي خادمٌ احبهُ جداً لم يكن باقياً بينهُ وبيني سوى بضع اذرع فزلّت قدمهُ وقبل ان نتمكن من تداركهِ هوى في ذلك المنحدر بمنظر يفتت الاكباد والتفّ عليهِ الثلج ونحن نسمع صياحهُ بين دويّ الثلج المتحدّر حتى غاب عن ابصارنا

وبعد ان بلغنا الى ذلك الموضع واتخذنا بعض الراحة استأنفنا طريقنا قاصدين البحيرات الخمس وكان بيننا وبينها سهول شاسعة ولم يكن في تلك السهول ما يُخشى منهُ خطر سوى الوحوش المنتشرة فيها وكنا كثيراً ما نصيدها ونقتات بلحمها ونلتفّ بجلودها . ولما بلغنا البحيرات لم يبقَ علينا الا ان نقطعها فنطأ ارض الذهب فاتخذنا اخشاباً وبنينا منها قوارب واقلعنا فيها تحت رحمة العواصف والشلّالات[1] الشديدة الاندفاع التي كانت تتقاذفنا من كل جهة حتى قُيّض لنا الخروج منها الى تلك الارض التي خصّها الله باثمن الكنوز واودعها مُنى الانفس ورغائب القلوب فوجدنا هناك ما يملأ العيون من قِطَع الذهب وحجارتهِ راسبةً في الجداول او مختلطةً بالتراب

---

(١) هي جمع شلّال للماء المنحدر من شفيرٍ عالٍ وليست من كلام العرب ولا في هذه المادّة ما يشبه ان تكون مشتقةً منهُ لكن جاء في تاج العروس فيما استدركهُ على القاموس ما نصهُ « والشلّال كشدّاد موضعٌ باعلى الصعيد حيث ينحدر منهُ النيل » اه . فالاظهر ان هذه اللفظة مأخوذة من هنا كانهم اطلقوا اسم ذلك الموضع على الماء الذي ينحدر منهُ من تسمية الشيء باسم محلهِ ثم شاع استعمالهُ بهذا المعنى فوُضع موضع الجنس وأُطلق على كل ماءٍ كان انحدارهُ كذلك والله اعلم

فحملنا منها ما قدرنا عليهِ ورجعنا بتلك الغنيمة الى الاوطان

قال ولم اكد انشر خبر رحلتي هذه حتى دبَّت خمرة الطمع والكسب في رؤوس الجماهير على اختلاف طبقاتهم ففارق الرجل امرأتهُ والاب بنيهِ والجنديّ خدمتهُ والتاجر تجارتهُ والغنيّ ملذاتهِ وتوجهوا الى كلنديك زرافاتٍ متتابعة وتوافد الى هنالك ارباب العلوم والفنون والصنّاع حتى اصبحت تلك البقعة الخالية مدينةً زاهرة زاهية

مُتفرّقاتٌ

ضروب التوقيع

اصطلح الناس ان يودعوا عقودهم بطون الاوراق يقيدّون فيها ما اتفق عليهِ المتعاقدان لتكون ذكراً لصاحب الحق وحجةً على من تعهد بهِ . ولكي تكون بهذه المثابة لم يكن بدٌّ من اثبات العقد بما لا يسع العاقد جحدهُ ولا يتأتى لغيرهِ تزويرهُ عليهِ فاذا كان ممن يكتب وقّع عليهِ باسمهِ مع الاقرار بانهُ هو الكاتب لذلك الصك او القابل لما فيهِ وهو الاصطلاح الشائع لوقتنا هذا في البلاد المتمدنة وان كان اميّاً صنع خاتماً ينقش عليهِ اسمهُ وختم على الصكّ ثقةً بان الخاتم لا يزوَّر فاستغنى بذلك عن التوقيع بخطهِ وكثيراً ما يُجمَع بين الخط والختم توكيداً للثقة وزيادةً في التحرز بل هو مما تتقاضاهُ المحاكم الشرعية عندنا فلا تقنع بالخط حتى يؤيَّد بالختم . والاصطلاح

على الختم قديمٌ جدًّا حتى لقد وُجِد في الآثار البابلية خواتم اسطوانية الشكل قد نُقِش عليها ما يراد الختم بهِ نقشاً غاراً كما نصنع نحن اليوم وورد ذكر الختم في عدّة مواضع من اسفار العهدين اقدمها ما جاء في سفر خروج بني اسرائيل من مصر وسفر ايوب ثم سفر الملوك واستير وبعض اسفار النبوءات وغيرها مما يستفاد منهُ شيوع استعمالهِ من اقدم زمن

وربما وقَّع الاميّ برسمٍ لا يُقصَد بهِ الهجاء المنطقيّ وقد اصطلحوا قديماً على رسم خطين يقطع احدهما الآخر على شكل صليب واول مرةٍ ذكر هذا التوقيع في سفر ايوب ويسمّى في العبرانية بالتاو وهو اسم حرف التاء عندهم وكان رسمهُ قديماً شبيهاً بالصليب ولا نحسبهُ من معنى الحرف الهجائي في شيء انما سمي بذلك لموافقته رسم هذا الحرف . وهذا الشكل كان مألوفاً عند العرب ويسمى عندهم بالتِواء وهو ولا شكّ معرَّبٌ عن الكلمة العبرانية الا انهُ لم يُروَ انهم كانوا يستعملونهُ الا في وسم الابل كيًّا على الفخذ والعنق . ومن الغريب ان هذا الشكل كان شائع الاستعمال في اوربا في جملة ما اصطلحوا عليه من اشكال التواقيع وبقي الاصطلاح جارياً بهِ الى اواسط القرن السادس عشر حين صدر امر الملك هنريكس الثاني سنة ١٥٥٤ بوجوب التوقيع بالاسماء في جميع الصكوك . وكان منهم من يقتصر في التوقيع على الختم ينُقَش عليهِ اسم الموقّع او احرفٌ منهُ يُشبَّك بينها على هيئةٍ مخصوصة وهو اصطلاحٌ قديمٌ ايضاً وقد رؤي منهُ على بعض المسكوكات اليونانية وبهِ كان يوقع الملك شرلمان لانهُ لم يكن يحسن الكتابة فرسموا لهُ مشبَّكاً من اسمهِ فكان يقلدهُ ومن ثم صار من

التوقيعات الخاصة بالملوك والامرآء والاساقفة والشرفآء واستمرّ في فرنسا الى القرن الثالث عشر وفي المانيا الى القرن الخامس عشر وآخر من وقّع بهِ من ملوك فرنسا الملك فيليب الملقب بالجريء

ومن متقدمي الاميين من كان عوض ذلك كلهِ يغمس طرف اصبعهِ في الحبر ويطبعهُ على الورق فيستغني بهِ عن الكتابة والختم ولا يزال هذا الاصطلاح جارياً الى يومنا هذا في بعض المواضع البعيدة عن مواطن الحضارة . وهو مستغربٌ في بادي الرأي وربما ضحك القارئ عند ذكرهِ اذ الاصابع متشابهة ولا يحتمل ان يكون فيها من العلامات والهيئات ما يميز بهِ اثر الواحدة عن الاخرى ولكن الامر بالخلاف لما يتحقق بعد الفحص والنظر من ان بين اصابع الناس من التباين والاختلاف مثل ما بين هيآتهم وملامحهم فلا تجد اصبعاً تشبه اصبعاً كما لا تجد وجهاً يشبه وجهاً . وذلك ان ظاهر بشرة الاصبع مكسوٌّ بخطوط دقيقة تُرَى كأَبعاض دوائر مختلفة المراكز بعضها في داخل بعض وهي تصغر شيئاً فشيئاً حتى تنتهي الى خطوطٍ في غاية الصغر فاذا تفقدت هذه الخطوط في عدة اصابع لم تجدها في اصبعين منها على شكلٍ واحدٍ سنة الطبيعة في كل بنآءٍ من الاجسام الحية حتى ان العلمآء دققوا في ورق الشجر فقابلوا بين الوفٍ من الاوراق من نوعٍ واحد فلم يجدوا ورقتين تتشابهان تمام الشبه في وضع العَير (اي الخط الناتئ في وسط الورقة) وما يتفرع منهُ من الشُعَب المتفرقة على جانبيهِ والمتخللة لسائر النسيج . وعليه فلو طبعت ما شئت من آثار الاصابع على الورق لامكنك ان تميز كل واحدٍ منها بشكلهِ المخصوص بشرط ظهور

تلك الخطوط في الطبع ظهوراً جليًّا وقد ذكر احد علمآء الانكليز انهُ فحص نحواً من ٢٥٠٠ اثر من آثار الاصابع فلم يجد اثنين منها متماثلين تماثلاً تامًّا

وليس هنا محل الغرابة ولكن المستغرب ان الاقدمين على ما كان الغالب عليهم من الأُميّة والبعد عن التدقيق في اسرار الطبيعة ومكنوناتها تنبهوا الى هذا التبـاين الخفيّ في نسيج بشرة الاصابع واطّرادهِ بين افراد الناس على العموم حتى اتخذوا ذلك حجةً على من يوقّع باصبعهِ تلزمهُ الاقرار بما وقّع عليهِ وتمنع من وقوع التزوير فيهِ . قيل واول من اصطلح على التوقيع بالاصبع اهل الصين ثم انتقـل منهم الى الهند وانتشر في سـائر الاقطار الآسوية . على انهُ لا يزال الى اليوم معتبراً عند اهل الضبط من اصدق الادلة على اثبات هوّيّة الشخص ولذلك فانهم في كثيرٍ من الممالك لا يكتفون بأخذ صُوَر المجرمين وذوي الشبهـات وتسجيل حِلاهم وأقيسة رؤوسهم ولكنهم لا بد ان يأخذوا اثر اصابعهم على الورق لانهم وجدوا ان تصوير الهيئة قد يضيع فيهِ شيءٌ من الحقيقة والحلى قد تتشـابه واقطار الرأس قد تتطـابق بين شخص وآخر على فرقٍ لا يُشعَر بهِ واما خطوط الاصابع فلا يقع فيها هذا الالتباس الاّ في اندر النادر والله اعلم

فوائد

تنقية الشمع ـ جرت العـادة في تنقية الشمع بان توضع اقراصهُ في المـآء الغالي فينحلّ الشمع ويطفو على وجه المآء ويرسب ما فيهِ من كدرٍ

وقذًى في اسفل الانآء . الاَّ انهُ بهذه الطريقة قد لا ينقى تمام النقاء ولذلك اصطلح بعضهم في هذه الايام ان يضع الاقراص في اكياس من نسيج صفيق ويُلقي الاكياس في المآء الغالي فاذا ذاب الشمع في داخلها خرق النسيج ونفذ الى المآء فطفا على وجههِ وبقي كل ما كان معهُ من الموادّ الغريبة في داخل الاكياس . وبهذه الطريقة لا يُحتاج في تنقية الشمع الاَّ الى اذابتهِ مرةً واحدة

تركيب لألوان التصوير الزيتي — اشار بعضهم ان تركب الالوان الزيتية للتصوير والنقش على الطريقة الآتية

يؤخذ ٤ اجزآء من البارافين و٩ من الشمع و١٠ من الكوبال و١٠ من المادّة الملوّنة ثم تُمزَج فيكون عنها الوان غير قابلة الفساد . وطريقة مزجها ان يوضع البارافين والشمع في انآء ويرفعا على النار حتى يذوبا ذوباناً تاماً ثم تضاف المادة الملونة مسحوقةً والكوبال ويُداف المزيج اي يحرَّك نحواً من ربع ساعة حتى يختلط ثم يصبّ في قوالب ويترك حتى يبرد فيكون اقراصاً جامدة فاذا أُريد استعمالهُ أُذيب على النار واستُعمل حارًّا

اطفآء لهيب البترول — من المشهور ان البترول اذا التهب لا يطفأ بالمآء بل يزيد بهِ اشتعالاً ولكن الافضل ان يُطرَح فوقهُ تراب او رمل او رماد او يلقى عليهِ نحو بساط او وسادة حتى ينقطع عنهُ الهوآء فينطفئ . وقد وُجد بالامتحان ان اللبن الحليب انفع شيءٍ في سرعة اطفآئهِ فانهُ يخمد لهيبهُ في الحال

اسئلة واجوبتها

مصر ـ هل داء اليرقان معدٍ وكيف يعالج

حنا الياس العريان

الجواب ـ اليرقان ليس بمعدٍ واما علاجهُ فينُظَر فيهِ الى السبب وهو على الغالب يحدث عن احتقان في القنوات الصفراوية ينشأ عنهُ سُدَدٌ تمنع انصباب الصفراء في الامعاء فيعالج بازالة هذه السدد بالمساهل الملحية والمحوّلات الموضعية على جهة الكبد واذا ظُنّ ان هناك يداً للوبالة (الملاريا) فقد يفيد مع ذلك استعمال الكينا على انهُ في كل حال لا يُستغنى عن رأي الطبيب

دمشق ـ نرجو من فضلكم ان تتكرّموا علينا بالجواب على ما يأتي

اولاً ـ يؤخذ مما ذكرتموهُ في الجزء الرابع من بيانكم الاغر عن كيفية التلفظ بالجيم استواء كلٍّ من لفظ اهل سوريا ومصر لها في الصحة ومطابقتهُ للمنقول عن العرب وقد ورد في مختصر الجمانة في شرح الخزانة انهُ لا يجب ان يمال بها نحو الكاف كما هو اصطلاح اهل الديار المصرية لانها هي والشين من حيز واحد ولا عبرة بما روي من مثل ذلك عن بعض لغات اليمن فانهُ مخالفٌ للغة جمهور العرب . فاي الرأيين يجب ان نعتمد

ثانياً ـ يقال ان الضاد خاصة بالعرب ولذلك يسمَّون بالناطقين بالضاد واذا ثبت ان تلفُّظ اهل سوريا ومصر بها اليوم هو موافق لتلفظ العرب

الاقدمين فلا يصح هذا التخصيص الذي ذكروهُ لانهُ قد جآء في لغات الافرنج ما يقابلها في بعض الاحوال . ويظهر ان لفظها الصحيح يجب ان يكون كلفظ اهل العراق والجزيرة اي ذالاً مفخمة وذلك لاسباب. اولاً لان الضاد على لفظها المتعارَف عندنا هي تغليظ الدال كما ان الطآء هي تغليظ التآء وقد منع واضعو اللغة اجتماع مغلَّظ ورقيقهِ في كلمة واحدة فلا ترى الطآء مع التآء ولا الصاد مع السين مثلاً . والحال اننا نرى الضاد مع الدال مجتمعة في كلماتٍ كثيرة كما في ضَمَد وعضد ودَحض ولا نراها ابداً مع الذال في كلمة واحدة . ثانياً نص ارباب التجويد واهل اللغة على وجوب التمييز بين الضاد والظآء ووضعوا لكلٍ منهما شروطاً وعينوا لهما مواقع وألفوا في الفرق بينهما مؤلفات منها كتابٌ رأيناهُ لابن مالك سماهُ الاعتضاد في الفرق بين الظآء والضاد ومنها كتاب لابي حيّان الاندلسي دعاهُ الارتضآء في الضاد والظآء . ونُقل عن الاصمعي انهُ قال تتبعت لغات العرب كلها فلم اجد فيها اشكل من الفرق بين الضاد والظآء وقال صاحب العين اتقان الفصل بينهما واجب لان الائمة المتقنين على ان وضع احداهما موضع الاخرى مفسدٌ للصلاة . فاذا كان لفظها كلفظ اهل سوريا ومصر فبينها وبين الظآء بونٌ كما بين هذه وبين الدال وعليهِ لم يبقَ معنى لهذا الحرص الشديد على الفصل بينهما والخوف من اختلاط احداهما بالاخرى. ثالثاً قد ورد في بعض الكلمات ابدال الضاد بالظآء كما في الضَفَف والظَفَف وضجَّ وظجَّ مثلاً فلو لم يكن تقارب بين لفظيهما هل كان يصح هذا الابدال . ويوجد ما خلا ذلك شواهد واسباب اخر نقتصر منها على

ما سبق فاي لفظٍ هو الصحيح عندكم م ١٠

الجواب ـ اما المسئلة الاولى فقد علمتم اننا فيما نوردهُ من المباحث العلمية ولا سيما الاحكام اللغوية لا نتقيد بالنصوص ولا نقف عند ما قرأناهُ في كتب الاولين ولو كان سبيلنا ذلك لم تكن حاجةٌ الى الكلام فيما يكون حاصلهُ نقل كلامهم وهو موجودٌ في كتبهم متداوَلٌ بين ايدي الجمهور وانما غرضنا التحقيق والبحث العلمي المؤيد بالادلة العقلية والشواهد النقلية والتاريخية ولذلك ترون في مقالة اللغة والعصر كثيراً من الخلاف والخروج عما قالوهُ والاستدراك عليهم فيما فاتهم والقصد من ذلك كلهِ الوصول الى الحقائق والكشف عما بقي مورًّى منها من طريق الاجتهاد والاستدلال ٠ وحاصل ما ذكرناهُ في المسئلة التي اشرتم اليها ان ما جرى عليهِ اهل الشأم ومن وافقهم في لفظ هذا الحرف هو اللفظ الذي كان عليهِ جمهور العرب في صدر الاسلام واواخر الجاهلية وعليهِ نصوص اصحاب النحو واللغة والذي في مختصر الجمانة تقريرٌ لما نقلوهُ ليس الاّ ولا مدخل لهُ في بحثنا اذ هو مقيد بنقل احكامهم ٠ وما جرى عليهِ اهل القاهرة ومن اخذ إخذهم هو اللفظ القديم لهذا الحرف بما اوردنا عليهِ من الادلة التي ترونها هناك فكلٌّ من اللفظين صحيح باحد الاعتبارين المذكورين ٠ واما تخير احد اللفظين فمرجعهُ الى اعتبار المعتبر بين ان يذهب الى الاعرف والاشيع او الى الاقدم والاسبق على ما اوضحناهُ هناك وذلك انما هو بالنظر الى المسئلة في نفسها مجردةً عما يضاف اليها من الاعتبارات اللاحقة التي قد يترجح بموجبها احد الوجهين او يتعين مما ليس من بحثنا في هذا المقام

واما لفظ الضاد فانا لم نسمع من يحكمهُ لهذا العهد على ما رسم علمآء اللغة من مخرجهِ والظاهر انهُ لكثرة اختلاط العرب بغيرهـا مع فقد هذا الحرف من لغات الاعاجم ضاع موضعهُ من الالسنة ولم يبق من يحقق لفظهُ . ولم نجد من دلّ على مخرجهِ باوضح ممـا ذكرهُ الرضيّ في شرح الشافية لابن الحاجب وان اضطرب بعض كلامهِ بمـا لا يقف في طريق المقصود ونحن نذكرهُ هنـا تحصيلاً . قال صاحب الشافية وللجيم والشين واليآء وسط اللسان .. وللضاد اول احدى حافتيهِ وما يليها من الاضراس . قال الرضيّ قولهُ وللضاد اول احدى حافتيهِ الحافة الجانب وللّسان حافتان من اصلهِ الى رأسهِ ويريد باول الحافة ما يلي اصل اللسان .. فتخرج الضاد من اقصى حافتي اللسان الى قريب من رأس اللسان ومنتهاها اول مخرج اللام .. وموضعها من الاسنان نفس الاضراس العليا .. قال ويقـال للضاد طويل لانهُ من اقصى الحافة الى ادنى الحافة اي الى اول مخرج اللام فاستغرق اكثر الحـافة . اه . فهو كما ذكرتم لا ينطبق على لفظ اهل سوريا ومصر ممن يجعلهُ دالاً مفخمة وكذلك لا يصلح ان يجعل ذالاً مغلظةً كما هو لفظ اهل العراق ومن جاراهم لان هذا انمـا هو لفظ الظآء بعينهِ فلم يبقَ فرقٌ بين الحرفين . واهل العربية يسمون الضاد الملفوظة كذلك بالضـاد الضعيفة قال السيرافيّ وهي لغة قوم ليس في لغتهم ضاد فاذا احتاجوا الى التكلم بهـا اعضلت عليهم فربمـا اخرجوها ظآءً لاخراجهم اياها من طرف اللسان واطراف الثنايا . اه . وموضع الفرق بين لفظ الضاد ولفظ الدال او الذال المفخمتين ان الضاد كما مرّ تفصيلهُ تخرج من حافة اللسان فلا يحرّك معهـا

طرفهُ ولا تشترك الثنايا في لفظها وبخلافها الدال والذال وبقية هذه الطائفة فانها باسرها تخرج من طرف اللسان مع استعانة الثنايا • ويزيد ذلك صراحةً قول الرضيّ في موضعٍ آخر من هذا الفصل وبعض الحروف اذا وقفت عليها خرج معها مثل النفخة •• وهي الضاد والظآء والذال والزاي فان الضاد تجد المنفذ بين الاضراس والظآء والذال والزاي تجد منفذاً بين الثنايا • اه • وبهذا القدر في هذا الموضع كفاية

آثار ادبيّة

مفتاح الافكار في النثر المختار ـ اهديت لنا نسخةٌ من هذا الكتاب تأليف حضرة العالم الفاضل الشيخ احمد مفتاح جمع فيهِ مختاراتٍ من النثر القديم والحديث قسمها على ثلاث طبقات اولاها من كلام الجاهلية وصدر الاسلام الى آخر عهد الخلفآء الراشدين والثانية من كلام من اشتهر من بلغآء المولدين من لدن عبد الحميد ومن تلاهُ الى الحريري صاحب المقامات والثالثة من كلام المتأخرين من القاضي الفاضل ومن عقبهُ الى ابن حجة الحمويّ وختمها بفصول من ترسُّل بعض المعاصرين من افاضل المصريين فجآءت سلسلةً متواصلة تتابعت فيها مثُل الفصاحة عصراً بعد عصر وحوت من نوادر النقل ما يعزّ الظفر بهِ ولم يُجمَع قبلها في سفر فنحث المتأدّبين من طلاب العربية على مقتنى هذا الكتاب ونرجو لهُ مزيد الرواج ولمؤلفهِ جزيل الثواب

منعى اديب

نعى الى قرّآء الضيآء وفاة الاديب البارع صديقنا الابرّ المرحوم خليل فواز وكيل مجلتنا العام في بيروت ولبنان قبضهُ الله اليهِ في الثاني والعشرين من شهر ستمبر الحالي في مصيفهِ بلبنان اثر داءٍ اعيا الاطباء ولم ينجع فيهِ دواءٌ فاودى وهو في بُرد الشباب ونضارة الحياة لم يتجاوز من العمر سبعاً وثلاثين سنة كان فيها مثال الادب والنزاهة وطهارة السيرة والسريرة طيب الثناء محمود الصحبة وثيق الذمّة . وكان رحمهُ الله من ذوي الغيرة على الخدمة العلمية ومن المشتغلين بعلوم الادب كاتباً محسناً وشاعراً مجيداً ومن آثارهِ رسائل لطيفة كتبها في وصف معرض شيكاغو وانفرس وكان ممن شهد هذين المعرضين ولهُ نظمٌ حسن لا يحضرنا منهُ الاّ مرثية رثى بها اخا صاحب هذه المجلة المرحوم خليل اليازجي ومن ابياتها قولهُ

يا خليلي في النائبات ويا خد نَ صبائي وعدّتي وعمادي

كنتَ مني مكان قلبي وقد بنـ تَ فخلفتني بغير فؤادِ

ومنها

سوف ابكيك ما دُعيتُ « خليلاً » او ذكرتُ « الخليل » في كل نادِ

فعليك السلام حتى الاقيـ ك وهذا في الدهر اقصى مرادي

اجل قد التقى الخليلان بعد ان اتى على افتراقهما عشر سنوات لم يَحُل فيها بينهما الاّ تراب الضريح والذكر باقٍ والحنين دائم والروحان متصلان تعمدهما الله برحمتهِ وجمعهما في دار كرامتهِ

فكاهات

رواية

غرائب المقدور[1]

بينا خرج الناس في باريز في احد ايام الاعياد يستقبلون اشعة الشمس ويحيّون وجه الطبيعة بعد ان حجبتها الغيوم والضباب اياماً اشتدّ فيها الزمهرير وحبسهم بين جدران المنازل فانتشروا فُرادَى وازواجاً ترويحاً للنفوس واستنشاقاً لنفحات الازهار المنبعثة من خمائل منتزهاتها وهم بين راكبي العربات ومتسلقي الدرّاجات وممتطي صهوات الجياد وقد ساروا على اختلاف طبقاتهم رجالاً ونسآءً يؤمّون غابات فرساي ورياضها وعلى وجوههم علائم البشر والمسرات اذا باحدى العربات تسير الهُوَينى وعليها راكبٌ تبدو عليهِ سيمآء العظمة وجلالة الشان الاّ انهُ لم يكن يشارك القوم في سرورهم ولا يظهر عليهِ ادنى اهتزاز لذلك المنظر فلم يزل سائراً كذلك بين تلك الجماهير حتى انتهى الى غابةٍ كثيفة على يمين الطريق فعطف اليها ثم استوقف الحوذيّ وترجل عن عربتهِ فسار الى حديقةٍ قد كوّنتها يد الطبيعة على ضِفّة جدولٍ يشتقّ من نهر السين وهناك شجرةٌ قديمة العهد فاضطجع في ظلها على الكلأ الناعم وارتفق على يمينهِ وجعل ينظر الى المآء وهو يتقلب في تحدّرهِ على تلك

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

الحجارة الفضية فيحدث صوتاً يشبه الانين ويبعث الشجو والحنين حتى يخيل للناظر انهُ يردد عن نفسهِ قول الشاعر

جريحٌ باطراف الحصى كلما جرى عليها شكا اوجاعهُ بخريرهِ

وبينا هو كذلك اذ سمع بالقرب منهُ انشادًا رخيماً وصوتاً عذباً استوقف خاطرهُ كالمبهوت فاصغى اليهِ فاذا هو يسمع كلماتٍ في غاية الرقة والحنوّ يزيدها ذلك الصوت الشجي حلاوةً وتأثيرًا ثم انقطع ذلك الصوت فجأةً بعد ان شغل قلبهُ واخذ بمجامع حواسهِ فانتظر هنيهةً ولما لم يسمع شيئاً هاجهُ الشوق فنهض وتوجه ناحية الصوت فاذا فتاةٌ في مقتبَل العمر ونضارة الشباب رشيقة القد فتانة الجمال فرفع قبعتهُ اجلالاً لها وانحنى مسلّماً ثم قال هل تأذن سيدتي ان اجالسها ما دمت لا ارى لها مؤنساً في هذه البرية . فقالت لا أَحبَّ اليَّ من ذلك اذا لم تجد منه مانعاً لكن تأذن لي ان اسألك ان تعرّفني بنفسك وتخبرني لماذا تركت صحبة غادات باريز وشبانها وقصدت هذه الخلوة . قال اما انا فالكُنت باسيل شيركوف احد انسبآء قيصر الروسية وسفيرهُ لدى امبراطوركم واما انفرادي عن معاشرة من ذكرتِ فسببهُ ما بين دولتنا ودولتكم من الفتور الحالي مما لعلهُ لا يحبّب الى الفرنسويين مخالطتي . وانتِ ايتها السيدة هل لكِ ان تتفضلي عليّ باسمكِ لاخاطبكِ بهِ في اثنآء اجتماعنا هذا

فلما قال هذا جعلت الفتاة تحدّق اليهِ بنظرها لانهُ لم تبقَ فتاةٌ في باريز لم تسمع باسم شيركوف ولم تودّ ان تراهُ لما اشتهر عنهُ من لطف المؤانسة ورقة الشمائل ومحاسن الآداب . فقالت لهُ انا فتاةٌ سيئة الطالع فقدت والديَّ طفلةً بعد ان استحوذت الحكومة على اموالهما الطائلة وانزلت

ابي من منصبهِ الرفيع فربيت عند نسيبةٍ لي حتى بلغت الخامسة عشرة من السن فتوفاها الله وتُركتُ في العالم وحدي اقارع الخطوب واعالج الهموم واكدح في كسب معاشي . واما اسمي فسارة دو برازاك . وكان شيركوف عارفاً باصل هذه الأُسرة وما كانت عليهِ من السؤدد واليسار فلم يتمالك ان انحنى ثانيةً امام تلك الغادة واخذ يجاذبها اطراف الحديث فلبثا يتآنسان ويتغازلان الى ان غربت الشمس او كادت فاستصحبها في عربتهِ حتى بلّغها منزلها ثم ودّعها بعد ان استأذنها في التردد عليها وانصرف

ولم يمض بعد ذلك طويل زمن حتى اقترن باسيل بسارة وقد وقعت من قلبهِ موقعاً محموداً ولم يجد من نفسهِ ميلاً الى سواها ولا سكوناً الى غيرها فكان ذلك مدعاةً الى سخط غادات باريز وحسانها لان كلاًّ منهنَّ كانت تجهد في اغرآئهِ بمحاسنها وتمنّي نفسها بالحصول عليهِ فلما ان تحققنَ زواجهُ وعدم اكتراثهِ بما كنَّ يبدينَ لهُ من التقرب انقلب ذلك التودد الى عدآء فوقفنَ لهُ بالمرصاد وجعلنَ يترقبنَ فرصةً لتنغيصهِ وطارت اخبار زواجهِ على جناح البرق فبلغت مسامع القيصر في بطرسبرج

وبعد تمام السنة وضعت سارة غلاماً في نهاية الجمال تلوح على محياهُ ملامح الفطنة وسمات الذكآء . وفي ثاني يوم ولادتهِ وردت على ابيهِ رسالة برقية من الامبراطور يستقدمهُ اليهِ في الحال لابلاغهِ اموراً ذات بال . ولما لم يسعهُ الاّ تلبية الامر نهض لساعتهِ يتأهب للرحيل واستحضر سلسلةً من الذهب الخالص ومعها نوطٌ (مدالية) قد نقش عليهِ اسم فيليب فعلّقها في عنق وحيدهِ تذكاراً ثم ودَّع زوجتهُ بقلبٍ كسير وهو يتلهف على مفارقتها

في مثل تلك الحال ومنّاها بقرب رجوعهِ حالما يفرغ من المهمة التي استدعاهُ لاجلها القيصر واوصاها ان تعتني بولدهِ فيليب ثم سافر تاركاً قلبهُ بين زوجتهِ وولدهِ وهو يتمنى لو امكنهُ قضاء اوامر القيصر والرجوع في ليلةٍ واحدة

ولما مثل شيركوف بين يدي القيصر استقبلهُ بوجهٍ عبوس وقال لهُ لقد قُطعت العلائق بيننا وبين فرنسا فلم يبقَ وجهٌ لبقآئك في باريز وقد استدعيتك اليَّ لتقوم في بلاطي بما هو اهمّ واسمى . فقال ما انا الاّ عبدٌ مطيع لمولاي فمر بما احببت . قال حسنٌ لكن قل لي هل لك من علائق في باريز . قال ليس لي يا مولاي في باريز الاّ زوجتي وولدي الذي فارقتهُ بعد ولادتهِ بيوم واحد . قال أوَعلى مسمعي ايضاً تجترئ ان تثبت ما بلغني عنك من تعلقك باحدى عواهر فرنسا ومقارنتك لادناهنَّ شرفاً حالة كوني كنت انوي ان اقرنك بالغرندوقة ماريا وتذكر ايضاً ان لك ولداً كانك تحسب ما فعلتهُ مما يخالف رضايَ امراً شرعياً . والآن فاعلم اني لا اعرفك الاّ عزَباً واحظر عليك مزايلة بطرسبرج لحظةً واحدةً وامنعك منعاً باتّاً من قبول رسائل من باريز او ارسال مثلها اليها وان علمتُ انك خالفتني في شيءٍ من ذلك فليس امامك الا سيبيريا فاذهب وانتظر اوامري

فقام باسيل وانصرف من بين يدي الامبراطور ولو ان صاعقةً انقضّت على رأسهِ لكانت اسهل عليهِ من هذا الحكم القاطع والقضآء المبرم الذي لايحتمل مراجعةً ولا تعديلاً فقفل في طريق منزلهِ والدمع ملء عينيهِ وبين صدرهِ ولهاتهِ

غصصٌ تكاد تفيض منها روحهُ   ويكاد يخرج قلبهُ من صدرهِ

اما سارة فقضت الايام الاولى في القلق والانتظار وكأن قلبها انبأها بشرّ مقبل فارسلت الى باسيل رسالةً تستخبرهُ فيها عن امرهِ وتكررت منها بعد ذلك الرسائل والاستفادات فلم يأتها منهُ جواب ولا وقفت لهُ على خبر لان رسائلها كانت تمزَّق حال وصولها عملاً بامر القيصر . ولبثت على ذلك مدةً الى ان نفد ما لديها من المال واضطرّت الى ان تبيع اثاث المنزل ولما لم يبقَ عندها ما تبيعهُ اخذت تغسل ثياب العسكر فتنال من ذلك ما يكفيها مع الحرص والتقتير لمعاشها ومعاش ولدها

واما فيليب فلِما كانت عليهِ والدتهُ من ضيق ذات اليد لم يكن في امكانها ان تجعلهُ في احدى المدارس فكان يتردد معها الى ثُكنة العسكر اوان ذهابها اليها فيرى من مناظرهم وحركاتهم ما أسّس في فطرتهِ الميل الى الجندية و بقي ذلك الميل ينمو فيهِ حتى اذا بلغ الخامسة عشرة من عمرهِ انتظم في سلكها وتخرّج في فنونها فخرج جنديًّا باسلاً ذا منظر ورؤآء . ولم يمضِ على دخولهِ فيها مدةٌ حتى نُدبت فرقتهُ الى الجزائر فسُرّ فيليب سرورًا عظيماً لتيقنهِ انهُ سينال في المعارك مقاماً عزيزاً اذ كان لهُ قلبٌ لا يهاب المنية وساعدٌ لا يوهنهُ طول الجلاد . ولما انبأ والدتهُ بذلك اشتدّ عليها واعولت وبكت ولكنها لما لم تجد الى ممانعتهِ سبيلاً اضطرّت الى الصبر والتسليم . ولما كانت ليلة سفرهِ اخذتهُ اليها وقصّت عليهِ تاريخ ولادتهِ وما مرّ بها من حين تعرُّفها بالكُنت باسيل شيركوف الى تلك الساعة ثم اوصتهُ بما حضرها من الوصايا الوالدية واخذت منهُ عهداً ان يكتب اليها كلما سنحت لهُ الفرص ولبث عندها يتزود من منظرها وتتزود من منظرهِ الى ان حان وقت رجوعهِ

الى المعسكر فودّعها وخرج

وبعد ذلك زحفت الجنود الفرنسوية الى بلاد الجزائر ولم يكن بينها اشدّ قلباً ولا اعظم تشوُّقاً الى خوض المعامع من فيليب فابلى فيها بلآءً حسناً وابدى من الجراة والاقدام ما أُعجب بهِ جميع قوّاد الجيش فلم يلبث ان زُيّن صدرهُ بالاوسمة وعُيّن قائداً للفرقة التي كان فيها وترامى ذكرهُ في الارجآء الفرنسوية حتى انتهى الى والدتهِ فكان ذلك مما اقرّ عينها وخفف عنها بعض ما تتجرعهُ من المكاره

وفي تلك الاثنآء اتسع الخرق بين دولتي روسيا وفرنسا وأُعلن بالحرب وسارت الجيوش الفرنسوية الى روسيا فاشتبكت مواقع القتال بين الدولتين ولما حمي وطيس الوغى صدر امرٌ من باريز الى القائد فيليب في بلاد الجزائر ان ينضمّ بجيشهِ الى عساكر الفرنسيس في جنوبي روسيا فلبى الامر للحال وركب بابطالهِ البحر بعد ان كتب الى والدتهِ يبشرها بارتقآئهِ وتوجههِ الى روسيا وطن والدهِ ويعدها بالرجوع اليها قريباً بعد انقضآء تلك المواقع

وكان وصولهُ الى روسيا والجيش في اشدّ الحاجة الى النجدة فاشترك مع القواد في سياسة الحرب وتدبير الجيش وحسر عن ساعد البسالة والاقدام فرافق النصر اعلامهُ واحاط الفوز بركابهِ وتقهقرت امامهُ عساكر الروس الى موسكو وكانت قد وافتها النجدات من بطرسبرج وتوقع الفريقان حدوث معارك هائلة تكون هي الفاصلة بين الجيشين

ولما كان الصباح نفرت تلك الجماهير المدججة بالسلاح وتصافّ الجيشان واصطلت نار الحرب فاشتبك الفريقان وكلٌّ يودّ ان يفوز او يموت .

وكان فيليب يهجم بجوادهِ على اعظم مواقع الخطر ويعرّض صدرهُ للرصاص وتهجم رجالهُ في اثرهِ حتى اخترق صفوف العدوّ وانفرد عن جماعتهِ ورأى القائد الروسي غير بعيد منهُ وهو على جوادهِ يعطي الاوامر لمن تحت يدهِ فانتهز تلك الفرصة وصوَّب مسدَّسهُ الى صدر القائد وقبل ان يطلق النار صاح احد الضباط منبهاً لهُ وقال انتبه ايها القائد شيركوف فان رصاصة هذا الفرنساوي مصوبة الى صدرك

فلما سمع فيليب اسم شيركوف توقف عن اطلاق الرصاص وشعر ببرودةٍ استولت على جسمهِ وخدرِ الم بكلتا يديهِ فانزل يدهُ ببطءٍ الى جانبهِ وهو لا يعلم افي يقظةٍ هو ام في منام . ولما انتبه الروسي نظر فرأى فيليب مصوباً سلاحهُ اليهِ ثم رآهُ ينزل يدهُ دون ان يطلق النار غير انهُ لشدة ما اخذهُ من التهييج لم يفطن لذلك الانقلاب ولم يتنبه لاصفرار لون خصمهِ وامتقاع وجههِ ولكنهُ في اسرع من لمح البصر رفع مسدَّسهُ واطلق منهُ رصاصتين اصابتا فيليب فسقط الى الارض مضرجاً بدمآئهِ

ولما سقط فيليب تضعضعت عزائم الفرنسيس واستولى عليهم الذعر والفشل وشدّ عليهم الروسيون فاعملوا في ظهورهم النصال ودحروهم الى مسافةٍ بعيدة . ولما انفصل الجيشان اسرعت الضباط للبحث عن قتلاها وجرحاها ومرّ القائد الروسي على الموضع الذي صرع فيهِ القائد الفرنساوي فنظر اليهِ فاذا الدم يتدفق من صدرهِ وتفرس في وجههِ فرآهُ فتىً لم يكد يخطّ عارضهُ فاخذتهُ بهِ رأفةٌ على غير ما يُعهد في مثل هذه الحال وترجّل عن جوادهِ فرفع رأسهُ المعفر بالتراب والقاهُ على صدرهِ ثم اخرج من جعبتهِ زجاجةً

وجرّعهُ منها قليلاً فانتعش وفتح عينيهِ فقال لهُ الروسي لقد اعجبتني شجاعتك ايها الفتى الباسل ولكنني اشدّ تعجباً من امساكك عن قتلي حين كان في يدك ان تفعل فلمَ لم تقتلني قبل ان اتمكن من قصف زهرة حياتك . فاجاب فيليب بنفسٍ متقطع وصوتٍ خافت اني مع كل بسالتي في الحروب لم اتمكن من اطلاق الرصاص على صدر والدي

فارتعش شيركوف وصاح على صدر والدك . . وما تعني بهذا الكلام ايها الفتى . فقال ألست انت الكُنت باسيل شيركوف . قال بلى انا هو وانت من انت . قال انا ولدك التعيس فيليب ابن الحزينة سارة دو برازاك . فصاح شيركوف وهو كالمجنون وهل في استطاعتك ان تثبت لي هذا القول . فقال ليس عندي من البرهان على ذلك اعظم من هذه السلسلة وهذا النوط الذي علَّقهُ عليَّ والدي يوم ولادتي وهما لم يفارقا عنقي يوماً واحدًا

فلما رأى شيركوف السلسلة والنوط صاح بصوتٍ اليم وقلبٍ يقطّعهُ الحزن آه يا ولدي آه يا ولدي

ثم ان فيليب تجلد وعاد الى الكلام فقال انا ذاهبٌ عن هذه الارض التي لم ارَ فيها سوى الشقآء ولكن وا اسفا على قلب تلك الوالدة الحزينة حين يبلغها خبري . اما انت يا والدي فلا مسئلة لي عندك الا ان تبعث فتضمّ تلك المسكينة اليك وتلطف بقلبها الكسير وتنقذها مما تقاسيهِ من شظف العيش ومتاعب الحياة وقل لها ان قُصارَى ما كنت ارجوهُ ان اعود اليها بالسعادة والسرور ولكن . . . ثم حرّك شفتيهِ كمن يحاول المنطق فلم يقدر فسقط رأسهُ على صدر والدهِ وفاضت روحهُ

ومن لنا بوصف حالة ذلك الوالد المسكين في تلك الساعة الهائلة وقد استطير فؤادهُ جزعاً والتياعاً واكبّ على ولدهِ يقبلهُ ويغسل الجراح التي نالها من يدهِ بماء جفنيهِ . واجتمع عليهِ كبراء الجيش وقوّادهُ فما منهم الا من بكى لبكائهِ وتفطر فؤادهُ لذلك المشهد الفاجع ونمي خبرهُ الى القيصر فتأثر لهذا الحادث تأثرًا شديداً وامر بدفن جثة فيليب بما يليق بمثلهِ من ابطال المعارك ثم استدعى اباهُ فعزّاهُ بما جبر من فؤادهِ الكسير ثم قال لهُ لئن رُزئت بفقد ولدك لقد نالت المملكة على يدك فوزاً مبيناً فسلني حاجتك تُقضَ في الحال . فقال اعزّ الله مولاي انهُ لم يبقَ لي من حاجةٍ في الدنيا بعد ما ثكلت وحيدي سوى ان لي في البلاد الفرنسوية شريكةً في هذا المصاب لا معزّي لها غيري وقد كان آخر ما تحركت بهِ شفتا ذلك المسكين وهو يجود بنفسهِ الرغبة اليَّ في استقدامها والتلطف في عزائها فان تعطف مولاي الامبراطور فلتكن نعمتهُ عليَّ ان يبيح لي اتمام ما توسل اليَّ فيهِ والا فانا وكل من ينتسب اليَّ فدًى لاقلّ عبيد مولاي . فرقّ الامبراطور لسماعهِ هذه الكلمات وقال قد ابحنا لك ما طلبت ورفعنا رتبتك وشرَّفناك بما تستحق بسالتك وحزمك فابعث استقدم زوجتك لتعزّيها وتعزّيك على ما نالتكما بهِ الاقدار وعيشا في كنفي على الرحب والسعة . فخرج من عندهِ شاكراً وبعث الى سارة فوافتهُ الى بطرسبرج وقضيا غابر ايامهما على احسن حالٍ من السعادة لا ينغص عيشهما الا تذكار ولدهما فيليب ولا يلذ لهما من احوال الحياة الا زيارة ضريحهِ كل يومٍ يسقيانهِ بالدموع ويحافظان على ما حولهُ من الازهار ان تبقى ناميةً واوراقها خضراء